

نجوم في يدي ... من المغرب

العربي في المغرب الأقصى . أنه جهد يسير جدا يحاول تحديد أحد ملامح ترحله الحضاريه والنضالية التي يمر بها ذلك الوطن الحبيب (٢) .

ولا يفف الأمر عند حد تعريف الفاريه العربي في المشرق بهذا الادب المغربي اندي يناضل في ارضه ، ويلعب دورا في حياة شعبه ، ويعايش فضاياه ، ويصور آلامه ومشاكله ، ويستشرف الطريق القويم لمستقبله . وانما يتعداه الى المغرب الأقصى نفسه . في محاولة لمعاونه اخواننا الدارسين والنقاد المغاربة الذين ينظرون الى ادبهم نظرة غير علمية في بعض الاحيان ، منطلقة من مفهوم خاطيء عماده ان الادب المعاصر بالمغرب لا يستحق ان يكون موضوعا لدراسة او ميدانا لبحث او حتى مجالا للحديث والمنافسة . من ذلك مثلا ما يقوله « محمد زنيبر » في محاضرة له بعنوان : « ادبنا الحالي في الميزان » : (اني غير مؤمن بما نسويه ادبنا المغربي المعاصر . وبعبارة ادق ، اني اذا كنت مؤمنا بوجوده كحدث اجتماعي يستطيع علماء الاجتماع ان يدرسه ، فاني غير مؤمن بقيمته الفنية ولا مقتنع بانه جدير بان يمثل المغرب لدى غيره من الامم . .) (٣)

معنى هذا أنه يعترف ضمنا بقيمة معينة لهذا الادب ، وهي كونه صوريا للمجتمع وتعبيرا عن بعض فضاياه . وهذه وحدها - اذا سلمنا بافتقار الادب لكثير من القيم الفنية - كافية لان تجعلنا نقف عنده

كعب الاسناذ « عبدالجبار السحيمي » في كلمه نه بعنوان (انطلاقا من موسم الهجرة) يقول : (في عديد من المؤهترات الادبية ، تسمع نفس الكلام من المثقفين وناقدا المعروفين ، فهم يسمونك دائما ببرير عدم اطلاعهم على النتاج الفكري والادبي الذي يأتي من الجناح الغربي للوطن العربي .. وحسن تكرر نفس الحالة ، فان الامر يعني اكثر من خطأ صادر عن حسن نية ، بقدر ما يعني انه ادانة .. وانه تعريسة للاقليمية التي تطبع الواقع الادبي العربي) (١) .

انه ككاتب مغربي، ينحي باللائمة على نقاد المشرق وادبائه وخدمهم، فيدينهم لانهم لا يهتمون بنتاج الادبي والفني والفكري ، اني يسمده هذا الجزء من وطننا العربي ، ويصل الى حد اتهامهم بالاقليمية الضيقة ! وليس من شك في اننا في المشرق العربي بعامة ، وفي مصر بخاصة ، لم نتح لنا الظروف كي نطلع على الآثار الفكرية والتفندية التي ينتجها اخواننا في المغرب الأقصى على وجه التحديد . والمسئولية هنا مشتركة ، تحملها اولا اتحادات الادباء ، اذ من المفروض أن تيسر سبل الاتصال ، وان تعمل على ازالة العقبات التي تقف في سبيل سرعة تصدير الكتب ، وان تهيء ببدل المجلات الثقافية والنشرات العلمية واللقاءات الفكرية . ويشترك فيها ثانيا ادباء المغرب الأقصى انفسهم ، لانهم لم يسعوا بصفة متصلة ودائمة الى تعريفنا بآثارهم الفنية والادبية تحاظ علما بادبائهم وبنائهم ونقادهم ومفكرهم ودارسيهم ، ولنتتبع حركة الحياة الثقافية عندهم . فهم اصحاب المصلحة الحقيقية في ذلك قبل الاخرين . ومن ثم يصبح لزاما عليهم ان يأخذوا زمام المبادرة ، وان يتحركوا ، والا يقفوا جامدين ليقولوا للناس تعالوا عندنا لتقرأوا كتبنا ، ولتسكتبوا عنا .. والمسئولية اخيرا ، تتحمل الحكومات العصب الاكبر منها ، بالقيود التي تضعها امام الكتب ، وبجمل الثقافة في اخر قائمة الاهتمامات وادوات التصدير والاستيراد ! . ومهما يكن من امر اتحادات الكتاب ، او عدم اخذ المبادرة من جانب اخواننا ادباء المغرب الأقصى ، او الموقف السلبي الذي وقفه ادباء ونقاد المشرق العربي ، او نظرة الحكومات العربية الى النبادل الثقافي ، فان فصارى ما نستطيع ان نفعله هنا هو أن نعرف العالم العربي ككل ، بهذا الادب الفوار ، المتحرك ، المشارك ، المتفاعل . مدفوعين بحرص اصيل على الاسهام في بلورة الدور الذي يلعبه الادب في حياة وحركة المجتمع

- (٢) ساهمت في هذا المجال بنشر بعض البحوث والمقالات مثل :
 أ - اتجاه جديد في الدراسات الادبية المغربية - مجلة (آفاق) التي يصدرها اتحاد كتاب المغرب - فبراير ١٩٧٢ - ص ٩٣ .
 ب - حركة الفكر والثقافة في المغرب الأقصى - صحيفة (النساء) ، العدد ٦٥٧٣ - ١٩٧٤/٨/٢٤ - ص ٤
 ج - عبد الكريم الطبال في الطريق الى الانسان - صحيفة (النساء) ، العدد ٦٥٧٩ - ١٩٧٤/٨/٣٠ - ص ٤ .
 د - خطوة نحو النقد الواقعي في المغرب - مجلة (الاقلام) التي تصدرها وزارة الاعلام بالعراق - سبتمبر ١٩٧٤ - ص ١٥ .
 (٣) مجلة (اقلام) المغربية - العدد الاول من الطبعة الجديدة - مايو ١٩٧٢ - ص ٢٠

وندرسه ونتمقه . والذين لا يعرفون شيئا ، أي شيء ، عن الادب المغربي المعاصر ، اولى بنا ان نقدم لهم هذا الشيء الموجود ، من الزاوية التي يتميز بها ويشوق فيها . وان كنت اختلف معه في ان بعضا من هذا الادب جيد ، مبر ، مصور ، صادق . ثم يكفيه انه يناضل في معركة طاحنة ، وانه لا ينسى مشاكل العالم من حوله ، وقضايا العروبة ، فضلا عن مماركه الداخلية اليومية .

وتحت عنوان « لماذا يصمتون !؟ » كتب « محجوب الصغري » في اطار مناقشة الحياة الثقافية بالمغرب ، مؤكدا جفافها وقلسة الاعمال الابداعية فيها ، ثم ينتهي الى القول بأنه (اذا اوجدنا النقاد والمتبعين لحركتنا الادبية ترى ماذا سيفقدون وماذا سيستبعدون ؟ بالطبع لا يجدون امامهم الكتاب المغربي الجديد ولا يجدون المادة المغربية في الصحف والمجلات والملاحق الا النزر اليسير) . انه يربط بين ندرة الانتاج وبين انعدام النقد السذي يجب ان يتابع هذا الانتاج بالتحليل والتفسير ، ويجعل الثاني محصلة للاول . ولنا ان نساءل: ليس من حق هذا القليل - لكسي/تحكم له او عليه - ان يخضع للدراسة الموضوعية الجيدة ؟ فالقليل القليل الان سوف يصبح كثيرا كثيرا من بعد ، والنقد لا ينتظر حتى تتوفر امامه اكوام مقدسة . وانما هو يتابع ، ويؤدي دوره ، ويقوم بواجبه الطبيعي . وعندما يتناول الدارسون هذا القليل الموجود ، سوف يقدوا سهلا على من يأتي بعنقذ من النقاد ان يتعرضوا لما يجد في الحياة الادبية ، وهكذا في كل مرحلة لا بد من وجود الذين يقومونها في كل الميادين . وليس ثمة ما يدعوا أبدا الى الانتظار حتى يصبح القليل كثيرا ، والفت جيدا ، والرديء ممتازا . بل علينا ان نتناول الرديء والضعيف والفت بالنقد والتحليل بغية بنقته وتقويمه وتصحيح مساره ودفعه الى امام ، ووضع المعايير الفنية والموضوعية المثلى حتى يحتذيها اصحاب الضعيف والرديء من الانتاج ، ثم من يأتي بعد من الناشئة ! ولا يعني هذا ان كل الادباء في المغرب الشقيق يقفون من ادبهم هذا الموقف . فان منهم من يرفض ذلك من ناحية ، او يتحفظ في اصدار الاحكام من ناحية اخرى . يتمثل هذا في قول « مبارك ربيع » : (لكن موقف المنكر للادب عندنا ليس موقفا سليما من الحركة الفكرية في هذا البلد ، وعليه ليكون في موقف معقول ومنطقي ان يقدم مفهومه للادب او تعريفه له . وعليه تبعا لذلك أن يدرس كل ما ينتج في البلد مما قد نسميه ادبا ، ليبرز موقفه . وهنا نرى ان دراسة هذا الانتاج نفسها تدعو مباشرة الى القول باننا نتوفر على ادب ما ، في درجة ما من سلم الآداب ، على أقل تقدير ، ان جاز أن يكون في الآداب سلايسم .) (٤)

عموما ، نرجو ان يكون انكار المفكرين نابجا عن انهم يريدون للادب في بلدهم ان يكون اعظم شأنا ، واكثر اكتمالا ، واشد تأثيرا ، واغوى امتدادا ، واغزر فاعلية . ومع ذلك فانا نحاول السعي من ناحيتنا الى ان نلفت نظر الاخوة المغاربة الي قيمة ادبهم بشكل او بآخر ، بمثل ما نجهد في محاولة تعريف قارئ المشرق بهذا النتاج : في القصة والرواية والكتابة الدرامية والمقال الادبي أو النقدي . ففي كل ميدان من هذه الميادين نجد ما يمكن ان يكون موضوعا للمناقشة . وفي سماء كسل لون منها يلمع اكثر من نجم . . ونحن سنختار نجما من هذه النجوم التي لم تحل غيوم الحياة وغياهب السجون ، بينها وبين ان تكون لها تأثير في سماء الفكر والفن والادب والنضال .

و « محمد الحبيب الفرغاني » يقف في مقدمة الشعراء المغاربة

(٤) من مقال « حول مستقبل النقد » - مجلة (آفاق) ربيع ١٩٧٢ ص ٨٦ .

الملتزمين ، بالمعنى الايدولوجي للالتزام الواعي اليقظ . فهو يجمع بين نضاله في حياة مجتمعه ، وبين معاناة التجربة الشعرية ، محاولا لارساء دعائم رؤية محددة ، يواجه بها العصر والواقع ، ليظل قريبا من حركة التاريخ ، ومن منطلق القوانين الاجتماعية والطبيعية ، وان اضطره ذلك الى ان يستخدم اظافره وسواعده للمشاركة في حركة تغيير المجتمع الذي يتنفس فيه ويعيش على ارضه . بمعنى ان يعتبر شعره فعلا ايجابيا يترجم حضوره في معترك الحياة ، ويعكس رؤيته الواعية ، واختياراته الشاملة . فقد اعطى النضال جل وقته ، مسهما في تطوير مجتمعه ، ومن ثم جاء شعره انعكاسا مباشرا لافكاره ونضاله لانه اختار ان ينشأ ابداعه الشعري عن ممارسة ، وعن صدق مع قضايا المعاشية ومع نفسه وعقيدته ، حتى يوهب لفته حرارة الصدق النابع من واقع اهتمامات النص ومعاناتهم ، ومن ايمانه بضرورة منح مجتمعه قيما جديدة ، وتحريره من اسار المعوقات التي تشل حركته ، والدخول معه في تفاعل جدلي ديناميكي ، ليصبح مجتمعا حرا حيا متطورا . ولعل هذا هو الذي كان يحمله في صدام دائم مع السلطة ، لان لديه ما يقوله مما يسبب قلقا مستمرا لها ، فيتربط على ذلك صدام متصل ، يستتبعه السجن والاضطهاد .

ذلك ان الفرغاني محمد الحبيب قضى معظم سني عمره في السجن والتعذيب منذ الاستعمار الفرنسي للمغرب . وهو من مواليد « تحناوت » ناحية مراكش ، في ١٨ - ١٢ - ١٩٢٢ . تلقى دراسته الاولى بقرنته وعلى والده . وانهى دراسته العالية بالفرع الادبي في كلية ابن يوسف ١٩٤٨ . ثم اشغل مديرا لمدارس حرة بكل من مراكش واغادير والدار البيضاء . وبدأ اسهامه المباشر في الكفاح الوطني والتحريري سنة ١٩٤٦ . وبسبب ذلك نفى من اغادير الى مسقط رأسه « تحناوت » من ١٤ - ٤ - ١٩٥١ حتى اواخر ١٩٥٥ . ثم نفى الى اقصى الجنوب مع جملة من رفاقه بمراكش الى سنة ١٩٥٦ . وبعد الاستقلال واصل نشاطه السياسي ، وكان واحدا من الذين شملهم القمع في ١٦ - ٧ - ١٩٦٣ ، وحكم عليه في مارس ٦٤ بستنين سجنا مع ايقاف التنفيذ ، لكنهم نقلوه الى مراكش في مايو من نفس السنة . وبعد ٥ يوليو ١٩٦٧ اعتقل في « سطات » وهو في طريقه الى الدار البيضاء ، بتهمة الدعوة الى مقاطعة البضائع الصهيونية والامريكية . وفي ديسمبر ١٩٦٩ اختطف من منزله في مراكش . وتعرض لكل انواع التعذيب الوحشي على يد البوليس المغربي ايام « اوقفير » ، وأخيرا تم الحكم عليه في محاكمة مراكش بعشر سنوات سجنا .

ولقد انحصر نشاطه اولا في دائرة حزب الاستقلال بمراكش حيث كان مفتشا للحزب . وعلى اثر تشكيل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية عين عضوا في اللجنة الادارية ، ثم مندوبا للحزب في اقليم اغادير ١٩٥٩ . ونجح في الانتخابات البرلمانية ١٩٦٣ بدائرتها . وفي ميدان الادب اصدر مجلة « رساله الادب » التي افسحت طريق التجديد امام الشباب المغربي . ورأس تحرير جريدة « الحر » . كما اشترك في تأسيس جمعية « مساندة الكفاح الفلسطيني » ، وهو عضو في اتحاد كتاب المغرب .

ولولا هذه الحياة المضطربة الفلقة المظلمة ، التي لم تترك له فرصة للإبداع الحقيقي ، ولا للتأمل الطويل ، ولا لامعان النظر في كل شيء حوله ، فكرا وسياسه واقتصادا وادبا ، لولا هذه المعوقات ، لاستطاع الفرغاني ان يقدم للمكتبة العربية ادبا وفكرا وثقافة ثورية ، تجاوز التأثير في الداخل الى كل البلاد العربية . لكن ظروفه تلك جعلته معروفا على نطاق واسع بين جدران السجون والمعقلات ، وعلى نطاق الشباب الذين يحاكونه نضالا وفنا ، ويحاولون السير في نفس

ومن ثم فانه يرفض الادب والادباء ، والفن والفنانين الذين يعيشون لانفسهم، ولا يدرون مما يحيط بهم شيئا ، ولا يشتركون فيه ، بسلب يهيمنون في احلام خاصة وخيالات معينة تفصلهم فضلا عن الاسهام بدور في محيط الرقي الفكري والايديولوجي للمجتمع ، باستخدام الادب سلاحا اجتماعيا ، ووسيلة من وسائل العمل ، من اجل فضايا الانسان البسيط ، وفي محيط تزويد المنتجين العاملين بثقافة اشتراكية هادفة. ولقد ساعد التقدم العلمي المعاصر الذي قرب المسافات بين ابعاد الحياة المادية على ان يصبح الالتحام بواقع الحياة ، وبأحداث المجتمع وحركاته هو السمة التي ينبغي ان تطبع الادب الحديث ، لانه وليد هذه الحياة، ولا يمكن ان يتفصل عنها الا اذا قرر سلفا الاختناق على نفسه واعتزال عالم الاحياء .. وعلى هذا فانه ليس مستبعدا على الاطلاق ان يتهمم الفرقاتي محمد الحبيب الادباء المغاربة الذين يؤثرون الاعتقاد عمن خوض مباركة الحياة التي يحياها الشعب المغربي ، بالانانية والفردية والاستغلال في بعض الاحيان : (ادباؤنا بصفة عامة ذاتيون رومانسيون ، يستهترون الحياة الوادعة من اسير سبلها ، ويتمنون رخاوة البال من أوفى مناعها .. نساغون سرعه مع الرثانة الفليدية للادب والفكر ، بنفس السهولة التي يدوبون بها على هامس الحياة ، وفي أطواء المنامم والاعراض . مثقفونا بعامة تقليديون أنانيون ، يعيشون فوق المجتمع ولا يعيشون معه ، يطوفون بالحياة الانسانية ولا يعيشونها ، يسعون الحياة ، واعينهم شاخصة الى الاعمدة الرخامية في حنايا القصور . يلاحظون المخاض الاجتماعي لتطور الجماهير الشعبية من حولهم بأعين ناعسة ، وبصائر مخدورة ، ثم لا يلبثون ان يتحولوا على انفسهم سدة الرثابة والجمود ، وحماة الحقوق التقليدية من وراء الاسوار..) ويستمر الفرقاتي قائلا : (وادبنا مشبع بالنوازع الفردية ، التي هي في ذاتها ظلال نابعة من البنيان الاقتصادي والاجتماعي لمجتمع اهمم ميزاته التسلط والافطاع ، وهو في روحانيته العامة ، تكميل ترفهسي للمآدب الفخمة ، وللحياة الناعمة في احناء الظلام ، وتحلية بلاغية لفروسية السادة وعظمتهم ، ونش بالناديل الحبرية على ظهر مجتمع ممتاز من طبقة المصطفين الاخيار .. ادبنا تاريخيا تفسير روحي لمجتمع اقطاعي ، نرى فيه كل شيء الا حركة الشعب واحواله ، ونسمع كل شيء الا هدير الشعب ، وانين الجماهير ، وصراخ المعدنين ..) (٧)

انها كلمة شاعر يؤمن بالتقدم والانسان والحب والنضال من اجل انتصار الكلمة الخلاقة السناء الفاعلة ، وكذا انتصار الانسان الفاعل، وتحطيم « المتفاعلين » الزورين المزيفين من الادباء والفنانين . والواقع ان هذه الراء وتلك الفكر التي يصرح بها الفرقاتي قد شهدتها صحافتنا الادبية والفنية ، وبالذات الصحافة التقدمية التي أعلنت الثورة على الاوضاع قبيل الثورة وبعدها . لكنها في مجتمع كالمجتمع المغربي -الذي يحرص على ان يبدو في صورة محافظة - اجتماعيا واخلاقيا وفكريا وأديبا - تعتبر جريئة جدا . ونحن وان كنا نحاول الاستشهاد بكثير من اقواله واراته هو فان مرجع ذلك الى :

● اننا في المشرق العربي لم تكن لنا دراية بالتيارات التي كانت تتصارع - وما تزال - بالمغرب الافصى ، نتيجة عدم اطلاعتنا على الوثائق والاناتر نفسها ، مما جعلنا بعيدين عن هذه المنطقة العزيزة من عالمنا العربي .

(٦) « نجوم في يدي » - ديوان محمد الحبيب الفرقاتي - دار النشر المغربية ١٩٦٥ - ص ١١ .
(٧) المصدر نفسه ص ١٧ - ١٨ .

الدرج في الميدانين معا : النضالي والفني .. ذلك ان المكتبة العربية تحتفظ للشاعر المناضل بديوان « نجوم في يدي » الذي صدر عن دار النشر المغربية ١٩٦٥ ، ويضم عددا من القصائد التي كتبها الشاعر في الفترة من ١٤ - ٢ - ٥٢ حتى ١٦ - ١٠ - ٦٤ ، وأغلبها ألف والشاعر مسجون . ولعل وعي الشاعر بالفن الشعري وفهمه لاجهاته وابعاده ، يتضح بجلاء في المقدمة الطويلة التي قوم فيها الشعر المغربي القديم ، وكشف عن العوامل المؤثرة فيه ، وقام بدراسة نقدية جزئية للشعر الحديث والمعاصر ، موضعا الاتجاهات المتناقضة المتصارعة في كيانه . والمقدمة تقع في اربع وخمسين صفحة ، مما جعل الناقد المغربي الشاب « محمد برادة » يقول : (ولطني لا اغالي اذا قلت : ان محمد الحبيب باصداره لهذا الديوان ، يتحدى جيل شعرائنا الشباب ، ويدعوهم الى الانتاج . ذلك ان مسؤولياته الجسام ، ومسائله الجمة ، لم تمنعه من ان يواصل كتابة الشعر ، ومن ان يكتب تلك المقدمة الرائعة . في حين ما تزال - نحن الادباء الشباب - نتحفظ ، ونحتضن الرؤى ، ونرضى باستمرار الجذب في محيطنا الادبي .) (٥)

اما كتابه « الفوات الشعبية من خلال التاريخ » فانه - فيما يبدو - لم ير النور ، وكان قد أعلن عن اقتراب صدوره . وهو دراسة تاريخية تكشف عن حركة التاريخ من خلال القوى الاجتماعية الشعبية المتصارعة في احضان الحياة ، وعن الدور الذي لعبته هذه القوى في مصارعة الظلم والفساد والظلم ، والمحافظة على الميزات النضالية الثورية للشعب المغربي . انه بمثابة عرض تاريخي لمواقف الشعب المغربي التقدمية ، وتحليل لحركاته الجماهيرية ، منفصلة عن الولاة والمسؤولين الرسميين ، منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث .. كما انه وعد بديوان ثان ، يضم المجموعة الشعرية الثانية بعد «نجوم في يدي» أطلق عليه اسم (قافلة الجياع) يقول عنه انه « نقمة نابضة من قلب الحياة ، وفبس الامل المشرق في جبين الدهر ، ونبرة حارة من أعماق النضال التحرري للجماهير الكادحة . » . ويبدو ان هذا الديوان أيضا لم يطبع بعد . مما قد يدل على ان حياته الصعبة لم تهيه له المناخ الصحي الذي ينتج فيه ويبدع ، ثم ينشر فكره وأدبه . وليس ذلك فقط ، بل ان ظروف هذه الحياة جعلته لا ينصرف طويلا الى الشعر وجوده وينقحه ويصيد النظر فيه ، كما انها هي التي أهلت عليه تلك الواقعية التي تسمه ، وكذا التزامه بالخط الثوري الناتج عن المعاناة التي عاشها طوال فترات حياته .

انه في نضاله اليومي يؤمن بحق الجماهير الشعبية في السلطة والعدل والمساواة والتعليم والثقافة والعمل والثورة ، ويقف في صف قافلة الجياع شعلة ملتهبة بالنشاط والحيوية والتدفق والحماس . وهو في فنه الشعري يحاول بكل ما يملك من صدق واخلاص ان يبلسور تطلعات ومطامح الشعب بالكلمة الشعرية النابضة . لان الادب عنده غير منزحل في آفاق أثرية بعيدة عن التأثير بالاضطرابات الارضية ، ولكنه منغمس في معترك الحياة ، يعكس العالم المادي بطريقته الخاصة . ويعبر عن الطبقة التي تناضل لتصبح مصدر السلطة ويفضح مخازي الطبقة التي توشك ان تنهار بنفس الطريقة أيضا (ذلك ان تطور الآداب نفسها ، لا يكون الا وليد تفاعل عضوي في البيئة الاجتماعية والتاريخية التي يعيشها ، وثمرة اختبار كامل في كنف الانظمة الاقتصادية والسياسية التي يعيش بين احضانها . وقد كان - ولا يزال - اصعب من الحياة ، التعبير عن الحياة ، وادراك الدوافع العاملة في دخيلة الحياة . وتبين المعابر التي تقيمها قوى الدفع المرحلية ، في كيانها ، ليتخطى التاريخ

(٥) من الكلمة القصيرة التي سجلها محمد برادة على غلاف ديوان « نجوم في يدي » .

الفنية الاولى تداعوا
في دجى الاخطار ،
باعوا ، بمجد الشعب فيك ،
تفاهة الاعصار
آمنت بالجمهور
يركض في ذرى التيار (٨)

ان نبض الثورة في عروق الفرقاني مستمد أصلا من ثورة الجماهير .
وبالتالي فانه يعترف بحركتها وحسها النضالي ، ويعلم أنها ليست
جامدة ولا متحجرة ، وانما الشعب كله ينتفض مخضب الجناح ، رافضا
القيود ، محطما السلاسل الحديدية التي كانت تكبل السواعد الفتيحة
الشابة ، غاسلا بثورته جراحه ، اكلا الاعاصير التي كانت تطحن
الضعاف والمستكينين من قبل ، لانه شاعر مناضل يؤمن بالمستقبل ،
ويتفائل بالغد الذي سيكون في صالح هذه الجماهير :

آه يا بلادي .. نيك ما زال يعيش التتر ✘
آه يا بلادي .. اني ارفعاه على الليل
فيك ، ويرعاني القمر .
آه ، يا بلادي .. اجر تاريخي الاحمر
في دم الثوار
بذرة ... في ثورة الجماهير
شعلة ... في ذرى الأقطار
شحنة ... من قوى الاعاصير
لمسة ... في سواعد الاحرار
آه ... في بلادي شعب ينتفض
مخضب الجناح ، يلقي السلاسل عن آذنه
بفضل الجراح .. ياكل الاعاصير في ليلة
ينتظر الصباح !! (٩)

لسنا هنا ازاء شاعر تقليدي ، ولا أمام انسان حالم واهم يرتع في
الخيالات ويوغل في اللامعقول وينعد عن الواقع .. وانما نحسن
نحس بشاعر يعيش الحياه بكل ابعادها وآفاقها ، ويكل ما تزخر به
من نوافذ وصراعات .. فقد آثر بداءة أن يجرح من القوقعة التقليدية
حتى لا يفصل نفسه عن الحياة والناس .. وارتضى الفوضى في الحياة
الانسانية ، لعنصر انوى ما فيها من نضال وقيم ، واكبر
ما تفخر به من نموذجيه الاستماتة في سبيل الفكر
والانسان ، ليوفد من مجموع ذلك مشعله الالهب الاكبر ، الذي يقود به
الجماهير ، وينير السبيل أمام حركتها التاريخية الكبرى نحو الحرية
والانعتاق ، ويقف على رأس الموكب ، يصب في أفئدة الظماء الجياع
جرعات القوة والامل ، ويشدو مع الصاعدين في موكب التاريخ أنشودة
الحياة .. بمعنى انه شاعر يعي متطلبات المرحلة التاريخية التي تجتازها
بلاده ، ويدرك دوره المحتوم ، الذي يلزمه بضرورة ان يكافح بالعمل
الاجاد والنضال المستمر اولا ، ثم بالكلمة وبالعاطفة وبالهمسة وبالنبضة
وبالاحساس الصادق وبالضمير اليقظ . ما دام قد اختار لنفسه موقفه
مع الجماهير ، وانجازها اليها ، ومعايشته أزمتهما ولهفتها وتعاستها
وهديرها وزحفها المندافع ونماها التوثب : ينقل الصورة في صدق ،
بروي الكآبة في حرارة ، يشد الابدي في ضجيج المعركة ، يصب النور
على الاقدام في زحمة الظلام ، يرفع في كلنا يديه على الدوام أمام

● اني لا أريد ان اقف عازلا بين فكر ووجدان وثورة هذا الفنان وبين
القارئ الذي قد لا يعرف عنه شيئا كثيرا . فازدت بذلك ان يكون
لقاؤهما بشكل مباشر وسافر يقدم الفنان نفسه من كل الزوايا، ويتعرف
القارئ اليها ويفسر فنه على ضوءها .

● ان الفرقاني محمد الحبيب المناضل لم يفرق ابدا بين فكرة الثوري
وبين شعره الواقعي ، ومن ثم فانهما مترابطان متحدان . والاكثر من ذلك
ان اسهاماته الإيجابية ذات التأثير المباشر في الكتاب والمثقفين والعمال ،
جاءت عن طريق كتاباته الثرية التي تحمل نوجهاته ونقده الاوضاع
الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية بصفة عامة . ولعل هذا
هو الذي جعل شعره يأتي انعكاسا واضحا لافكاره وآرائه من ناحية .
وهو ما يدفعنا من ناحية اخرى الى الظن بان الشعراء الذين اتوا من بعده
تأثروا به كمناضل ثوري ومفكر تقدمي اكثر بكثير جدا ممن حاكوه
وقلدوه وتأثروا به شاعرا .. فلو أننا اطلعنا على القرارات التي اتخذها
الشعراء الشباب الذين اجتمعوا في اول ملتقى شعري لهسم باندار
البيضاء ، والذي انعقد في الفترة ما بين ٢٤ - ٣ - ١٩٧٢ الى ٢٦ -
٣ - ١٩٧٢ لاتضح لنا أن الشعراء يفصحون عن مطالب لا تخرج عما
كان ينادي به الفرقاني ويدعو اليه ، سواء في ذلك الذين يكتبون
بالعربية او بالفرنسية . من ذلك مثلا انهم اعلنوا :

١ - تأييدهم للكفاحات الجماهيرية المتنوعة ، وعسن مشروعية
المطالب المبرر عنها ، ويعتبرون ان تطور المغرب في اتجاه اجنابي
رهين بالاستجابة لتلك المطالب وبالتخلي عن اسلوب الفمخ وسياسة
النجاهل .

ب - نضامهم مع مضطهدي « بالفتح » حملات الفمخ المناهية التي
اتسمت بشكل لم يسبق له مثيل ، وتسلمت على مختلف الفئات
الوطنية من مثقفين واساندة وطلاب وتلاميذ وفي مقدمتهم الاساندة :
محمد الحبيب الفرقاني - عبد السلام بورقية - عبد اللطيف المصبي
ابراهيم السرفاني - محمد شعبة باعتبارهم مثقفين ملتحمين بقضايا
الجماهير الاساسية ومعبرين عنها .

وليس تقديم الشعراء الشباب ثلاثا محمد الحبيب الفرقاني الا دليلا على
اعترافهم بدوره النضالي وتأثرهم به في هذه الناحية . ويلاحظ أنهم
ربطوا بينه كمتف و بين النحامه بقضايا الجماهير الاساسية . كما ان
البيان لم يشر الى مسائل خاصة بالفن والادب ، او بالشعر والشعراء
كمسائل منفصلة لها خصوصيتها وذاتيتها ، وانما ركزوا على دور
ورئيسية على ما يهم جماهير الشعب المغربي ككل وليس فنه من فنانه
او طبقة من طبقاته الاجتماعية مستقلة عن بقية الفئات والطبقات . وهم
يدركون حب الفرقاني للشعب المغربي بجماهيره صاحبة الكلمة الاولى
والاخيرة . وكيف انه يعتبر رسالة الشعر هي تمجيد هذه الجماهير
وصنع الفرح لها والنضال في سبيل اسعادها ، وكل ما عدا ذلك - في
نظره - خيانة للشعر ولدور الكلمة وللجماهير ككل ، بشرط ان يكون
الشعر شعرا تكتمل فيه كل خصائص التقنية الفنية .

ولقد حطم الفرقاني في شعره كل الاوتان . واجتلى نجم الشعب
المغربي ، والشعوب العربية ، والانسان بالمعنى الشامل ، لان معركته
هي معركة الانسان في العالم كله ، وهي معركة لا تتجزأ . انه يطس
علينا من خلال شعره غارقا في مشكلات الانسان ، معانقا شعبه ، منمئلا
كل شعيرة من شعائره ، وكل جزئية من جزئياته :

ليك يا شعبي
فانك منتدى أقداري
آمنت بالامجاد
تحرصها بد الاحرار

✘ ملاحظة من التحرير : نود ان ننبه الى أن الكتاب الفاضل اغفل
الإشارة الى عدم استقامة بعض الابيات الشعرية التي أوردها .
(٨) الدبواز ص ٢٩ .
(٩) مجلة « أنفاس » - ديسمبر ، يناير ١٩٧٢ - ص ١٠١ .

مر بها الشعر المغربي والسيارات التي تتقاذفه ، (ان البورجوازية الاقتصادية ، لا بد أن واكبتها بورجوازية شعرية ، توشي اجنحتها الام الاروستوقراطية بريش من ذوب المشاعر، ورقة الاحساس، والا كانت بورجوازية مغلقة ، وهديرا أصم في الحياة الاجتماعية ، لا تترجس عنه الاصداء ، ولا تصفي على الحياة مطارفا الزاهية ، التي تخفي في واجهتها معارض العري والجوع ، ومعالم البؤس والشقاء . ان الشعر البورجوازي يقوم بدور الرديف الملحق بالطبقية الاروستوقراطية المستغلة ، التي تفرس مصالحها في قلب المجتمع ، وله مهمة تحدها وضعيته الاضافية في ان يساهم في عملية تجريد الحياة من محتواها الانساني ، وتزييف القيمة الذاتية التي طالما اعتر بها ضمير وقلب الانسان ، واخيرا تعزيز الفروق الفاصلة ، بين انسان استفضل ممن فاكته المختارة ، ثم غاص في حوض الحرير ، وآخر طرق ارجاء الارض، فما ملك سوى أن التهم في الأخير تراب قدميه ، ثملقى باضلعه التبعة فوق مزق حصير . (1.0)

وواقع الامر أن هذا الرأي لم يطلق هكذا كيفما اتفق ، لانه تابع اولا وقيل كل شيء من موقف عملي يلتزم به الشاعر ، ويدعو المثقفين جميعا الى الدفاع عنه وضرورة الاخذ به . كما أنه بدل على رؤيته التي سبق الاشارة اليها ، وبكسف عن وعيه ونقائمه ، وفهمه للقوى المتصارعة في اعماق المجتمع المغربي آنذاك .

ويكاد الفراني محمد الحبيب يكون أول شاعر مغربي معاصر تناول مشكلة هامة يعاني منها العمال والشباب المغاربة الذين يهاجرون الى فرنسا ، بحثا عن عمل ولقمة عيش ، ويعانون في مهجرهم معاناة مرة ، في حين أن وطنهم اولى بجهدهم وعرفهم ، لو أنه أحسن استخدامهم ، ووضعت الخطط والبرامج للاستفادة منهم ، ولتأمين حاضرتهم وضمان مستقبلهم . وهذه هي إحدى القضايا الاجتماعية التي تدمر البنيان الاجتماعي ، وتجعل الانسان المغربي العامل غريبا في أرضه ، مما يدفعه الى غربة أخرى أشد واعنف يلاقي فيها كل ألوان القهر والعساذاب النفسي . وهو يتحدث في قصيدته « صادرات اللحم والدم » على لسان شاب هاجر الى فرنسا بحثا عن عمل ، وقد سدت أمامه كسل الابواب في بلده ، في الوقت الذي انفتحت على مصارعها أمام الخبراء الاجانب .

الصادرات هنا دمي وشبابي
يا للضياع لأمتي .. وخرابي
لولا الضياع .. ولولا جوع كافر
ما كنت أجزع هجرتي .. وغياي
لولاك ، يا وجه البطالة كالحا
ما كنت أسبح ها هنا بفسابي
ما كنت أعصر صحتي متفريا
واذيب اعصابي .. أهين شبابي
وايبعها نفسي بلقمة جائع
ووسقت الذرع يائس ومصاب

وبعد تصوير نوعية الحياة الشقية التي يعيشها المغترب في المهجر، وبعد المقارنة بين ما يقدمه هذا المغترب للمهجر من جهد يبني عليه حضارته وصناعته وتقدمه ، يلقي باللوم والتبعة على وطنه الاصلي ، ويشمره بالذنب الكبير الذي يتركه في حق أبنائه . وهو لا يصور هذه القضية منفصلة عن بقية القضايا التي تفعل فعلها الدمع في حياة

انطلاقا من هذه الرؤية الواقعية ، رفض محمد الحبيب الفراني ما يسميه هو بالحياد الادبي ، ونبد بعنف وقوة اللا موقف من الحياة ، واعتبر أن كل دعوة اليها : الحياد واللا موقف ، ليست الا تبريرا داخليا يفرغ اليه الاديب الجبان الهارب من صخب الحياة ، لينجو بنفسه من المعركة ، ومن شغايا المناجزة الحامية تنظير من قلب الميدان وليس أكثر من ذلك الا كفرا قاسيا بفضويته في المجتمع الذي ينتمي اليه ، وشسذوذا نافرا عن الالتزام الذي تفرضه وتفنوه في اطاره المصالح المشتركة ، وتخلف دليل في النهاية عن الموكب الصاعد في ذروة التاريخ. ذلك ان اللاموقف من الحياة والواقع وقضايا الجماهير الفاعلة، انما يعني في مدلوله العملي اختيارا شخصيا ، وسلوكا ذاتيا معينا ، وموقفا سلبيا بآية حال . والسلبية نفسها حين يكون العمل الايجابي ضرورة وطنية وفكرية ملحة، ليست الا عهارة فكرية ، ونكوصا رجعيا عن نداء الحس ووفاء الضمير . ليست الا مساهمة غير مباشرة في العمل التخريبي والسلوك الرجعي الذي ينجزه اعناء الانسانية والحرية وخصوم التطور .

وعلى هذا الاساس كان موقف محمد الحبيب الفراني من كل شيء يحيط به ، سواء كان ذلك في اطار عالمه العربي ، او في دائرة وطنه المحلي ، او على النطاق العالمي . وقد حدد لنفسه ولشعره دوائسر معينة يدور فيها ولا يتعداها . فهو ابن بيئته بمشاكلها وتناقضاتها وطموحها . وهو ابن عالم له مميزاته وخصائصه والمعوقات التي تشله عن الحركة والوحدة والتقدم . وهو انسان بكل ما تحمل الكلمة من معنى .. ومن ثم فانه يجعل شعره في خدمة هذه القضايا الرئيسية . نجده يصور معاناة الشعب المغربي في حياته اليومية المعاشية ، وفي نضاله من أجل حرية الانسان المغربي الكادح ، وفي سبيل تحقيق العدل الاجتماعي والمساواة الاقتصادية . وهو لا يستطيع تصوير ذلك من خلال نظرة فردية او رؤية جزئية احادية الجانب ، وانما ينظر الى الواقع في كليته وشموليته ، على اعتبار أنه سلسلة متصلة الحلقات ، يؤثر بعضها في بعض ، ويتأثر بعضها ببعض الآخر . وان كنا نراه ينحاز انحيازا واضحا في موقفه الى جانب الطبقة العاملة ، ولا ينسى أن يفضح تلك الطبقة التي لا تعمل وانما تعيش على حساب العاملين :

أتري من المسئول ؟ من أودى بفجري الساطع ؟
من لعن غل الاثم في عنقي ؟ ودق اضالمي ؟
من أذوى لي شرف الشباب ؟ وباعني لفجائي ؟
من ساقني للسوق اشري ذلتي ومدامعي ؟
من سامني هون الحياة على الرغيف الضارع ؟
اني لمست جيبه ما بين كل مجامعي ؟
وعرفته في المتخمين من الرفاه المانع
ووجدته في الباذخين .. لمسته باصابعي
في الفائضين على الحرير .. الى المتاع الوداع
في التائهين مع الهوى في كل يوم جامع
في التازفين من الضلوع .. وكل عار .. جائع
اني عرفت مصائبي .. وعرفت ابن مصارعي .

واذا كانت هذه الطبقة المسيطرة اقتصاديا وسياسيا تتحكم في شتى جوانب الحياة المادية في المجتمع المغربي ، فانها بنفس القدر تحسول دون انطلاق الفکر ، وابداع العقل ، وتطور المرأة ، ونمو المجتمع ككل . وبالتالي فانها تشكل الفن والادب وتصيبهما بالصيغة التي تريد . وقد تنبه شاعرنا الى ذلك ، وهو بصدد دراسته المراحل التي

هذه الجموع هي التي اهدى اليها ديوانه . وهي التي وفق ويوفى الى جانبها . فضلا عن وفقته الي جانب المثقفين الثوريين الوطنيين الذين يبذلون ارواحهم فداء لقضايا شعبهم الكادح . اولئك الذين لا يفصلون بين ما يؤمنون ويعتقدون وبين ما يجب ان يفعلوه فسي حياتهم اليومية .

وبمثل ايمانه بالفد ، وتفأؤله بالمستقبل ، ودفاعه عن وحدة وطنه والتراب المغربي ، نراه متفانلا ومؤمنا ايمانا لا يتزعزع بالوحدة العربية (حيثما كنت من أرض وطني العربي ، في ليبيا ، أو في تونس ، أو الجزائر ، أو مراکش ، أو غيرها ، فانا هوية واحدة . لا أحمل فسي نفسي وفكري وعواظي الا تعريفة واحدة ، ولا أعيش الا بقيمة واحدة ، هي ذاتي وتاريخي وغدي ، لا املك فيها ان انفصل عن نفسي، او انكر ذاتي ، كما لا تملك الحياة في تشابكها المفقد ، الا ان تكون ظلا لحقيقتي . وعلى صفحة الافداز الكبرى في حياتنا . يبقى الاخاء العربي والبناء التاريخي في كياننا قوة أصيلة ، تتخطى في سماوة تليدة معاني الطريق . وتتحدى في صلابة عنيدة عوارض الاحداث . ومهما تاهت في بهمة ليبي معالم الطريق ... فاني اعرف نفسي .. واجدها .. وتجنبي !!) . هذا الحس القومي العربي نجده متاصلا في قصائد مثل « ظمأ الى الصحو » ، « النغم الممزق » ، « السفح المقدس » .

نحن - في مشرق العروبة أم في مغرب الارض أخوة - لا نحسور مصر منها القلب الذي ، وفي مصر على الدهر روحها المشهور . توأما نديها الكنائة والمغرب .. لا ، بل مرادها المذكور . توأما ثورة على الظلم والاقطاع ... يسمى في الارض ، وهو سعي وحدة في الوفاء يربطها الروح ، ويعطي بناءها التحرير . فمن الاطلس المهيم ... للنيل عهد موصولة ... وجنور وتحايا مشبوبة الروح - حرى - فيها نبل .. وطفرة ... وظهر فيها كل الاخاء ، كل الاماني ، فيها بعث ، ووحدة ، ونشور فيها من قلبنا ، وفيها دمانا ... فيها آلامنا ، وفيها سرور أ

القاهرة

المجتمع المغربي ، وانما ينظر اليها من خلال رؤية شاملة لجوانب الحياة الاخرى . ونراه يصور المجتمع من انداخل . من الاعماق . ويركز تركيزا قويا على الصائعين والتائهين اجتماعيا . بل انه ينتخب من فاع المجتمع اولئك الذين لا يتفتت اليهم ، ولا يحسب لهم حساب على الاطلاق . الذين لا يعملون في مصنع . ولا مزرعة . ولا منجم . المحرومون من العمل . الجياع بلا أمل . الذين يشكون فافلة كبيرة العدد ، طويلة العرمان . وهو كلما رأى واحدا من التائهين المطحونين ، كلما تجسدت صورة ملايين الجياع المحرومين ، عندئذ يشعر بذاته كإنسان ، وبدوره كمتاهل ، وبوجوده كفنان . يقول في كلمة صدر بها قصيدته (كفران) (وفي احدى الجهات ، مررت بانطفل الهيمان . يجتر اليتيم ، ويقنات العرمان ، فرأيت الضياع يتيه على الارض ، والبراءة تتمرغ فسي الشقاء . وقرأت في أمزاعه أسطرا من جريمتي .. وتبينت انه بعض من امتي .. فعلمت عند ذلك وكاني من الحياة ، ومن الانسان .)

وفي تصويره ماسح الاحذية تأكيد لهذا المعنى في قصيدة (صنوفة الشقاء) . خاصة وأنه يشير الى الحياة القاسية التي تعيشها بعض القبائل المغربية جنوبي (تارودانت) حيث تضعف الموارد الاقتصادية ، مما يدفع أبناءها الى الهجرة منها بحثا عن عمل في أي مكان آخر ! وليس معنى هذا انه يلتقط صورا من الحياة لها خرافتها ، أو يتباهى بانه عبر عنها اشفاقا بها ، وانما المعنى الوحيد والقبول على ضوء ما هو معروف عنه من انحياز الى الجياع والمطحونين اجتماعيا ، أنه يدفهم دفعا الى تغيير واقعهم ، بعد أن يتكلموا ويتحدثوا ، وبعد أن يعرفوا عدوهم جيدا ، ثم ينظموا صفوفهم ويتسلحوا لخوض المعركة ، كي يطلع الاصباح المرتقب . وهو لا يفتنا دائما يقارن بين حالة هؤلاء وبين حالة من تسببوا في اذلالهم وافقارهم ، وقصائده : « الجوع الشريف » و « مسابح الفساء » و « غدا .. نلتقي » و « فافلسة الجياع » و « أنشودة الموكب » تشهد بذلك .

يموت هنالك ليل الحياة بنوب .. يدوب هنالك النهيق

غدا - ولنا المعجزات - سنخلفه غد عيش طليق

ملايين بلفحها الجوع ستعرف ماذا تريد وماذا تطيق

دار الاداب تقدم

محمد علي شمس الدين

في مجموعته الشعرية الاولى

قصائد مهربة الى حبيبتني آسيا

● « قصائد مهربة الى حبيبتني آسيا لوحة فنية مؤلفة من اربعة مقاطع يتلون فيها الرمز بمنظور تراثي عصري وواقعية جديدة وتجريد يجعل اللفظة الشعرية ذات ابعاد وعمق. حيث يتحول المجاز فيها الى خصوصية مونولوجية تتابع فيها الصور تتابعا عفويا فيه براعة واصالة . وهو مجاز منغم قائم على تعادلية صافية بين اللفة الشعرية في القصيدة وبين رصيدها الصوتي الموسيقي . فهو مرهف كالبكاء ، وشمسه مزاجية وهواه أزرق .. »

الدكتور هناد خزوان في كلامه على قصائد مهربة / المربد

الشعري الثاني نيسان ٧٤ .

● « قصيدة فاتحة للنار في خرائب الجسد » حشد غريب من رموز الرعب والتمزق والاحتراق . وفي هذا الحشد لا يعطينا الشاعر مجالا للتوقف لكي نعرف مانحن فيه بل يسير بقوة دون توقف متهما مجموع الطبقات في اقتسام أشلاء العالم ، وبالمشاركة في جريمة انتهاك الإنسان وتوزيع أشلاء جسده على بعضهم البعض . والقصيدة تظهر طاقة شعرية فريدة ، طاقة تترجم شعريا ، وعن فهم ، العصر الحاضر والتراث الانساني ، بكل البؤس والالانسانية والتمزق المتواجد فيها .

جبرا ابراهيم جبرا في كلامه على قصيدة فاتحة للنار .

الملتقى الشعري الثاني ١٢ / ٧٤ .

صدر حديثا